باب العلوم الاجتماعية:

1- المرأة المعاصرة المثقفة ودورها في المجتمع المصري «"أثقل من رضوى" لرضوى عاشور نموذجاً»

بقلم كل من الدكتورة كبرى روشنفكر والدكتورة سميرا حيدري راد

korshan@modares.ac.ir

00989122978266

تاريخ الاستلام: 6/4/2022 **تاريخ القبول: 4/5/2022**

الملخّص

الشخصية هي من أهم المكوّنات السردية في الأدب القصصي. وهي تلعب دوراً أساسياً في تجسيد أيديولوجية الكاتبة. وللشخصية الروائية تصنيفات متعددة لكن هذه التصنيفات لم تعتن بفكرة الجنوسة، ولا ينظر النقّاد غالبًا إلى جنس الشخصية في دراسة السرد. والمرأة الكاتبة تفكّر وتسعى دوماً إلى ارتفاع شأنها من حيّز الهامش إلى حيّز المركز من خلال ترسيم الشخصيات النسائية في أعمالها الروائية. تهدف هذه الدراسة باعتماد المنهج الوصفي–التحليلي إلى تحليل الشخصيات النسائية في رواية "أثقل من رضوى" لرضوى عاشور الكاتبة المصرية المعاصرة، وذلک وفق آراء إدوارد سعيد في ضوء نظرية ما بعد الكولونيالية. وتوصلت إلى نتائج أهمّها؛ الشخصية الرئيسة المثقّفة هي رضوى عاشور التي تدافع عن النساء الهامشيات. وموقفها بالنسبة إلى السلطة موقف تحدّ. وهي من الشخصيات الثورية التي تدعو النساء إلى المساهمة السياسية. في هذه الرواية نرى أنّ رضوى تتحدث عن غرض الكتابة عند المرأة ثمّ تركز على شخصيات البطلات في جميع أعمالها الروائية لتشير إلى صلة عميقة بينها وبين الشخصيات النسائية وتتفق هذه الشخصية مع السمات الأساسية التي يعدّها إدوارد سعيد للشخصية الهامشية المثقّفة.

المفردات الرئيسة: شخصية المرأة، المثقفة، إدوارد سعيد، رضوى عاشور ، أثقل من رضوى.

1-المقدمة

لا تزال الشخصية في التحليل الروائي تحظى بالأهمية القصوى، لهذا ليس بإمكاننا أن نتصور الرواية دون حضور الشخصيات فيها. ويصنّف النقد الأدبي الشخصيات حسب أطوارها عبر العمل الروائي. ومن الواضح أنّ هذه التصنيفات السردية للشخصية لم تعتن أبدا بفكرة الجنوسة، إذ لا ينظر النقاد إلى جنس الشخصية ولا ينتبهون إلى الصوت الجنوسي في تحليلهم للشخصية. ويظهر غياب فكرة الجنوسة والصوت النسوي في دراسة السرديات للشخصية الروائية.

«الذات الأنثوية قد تتبدي في النصوص الأدبية بشكل مباشر أي من خلال "الأنا" الساردة أو بشكل غير مباشر من خلال "الشخصيات النسائية" المنتشرة في العمل السردي» (العيسي، 2010: 48).

إذن تأتي مهمة النقد النسوي في إقصاء (القراءة الأبوية)[1]وإحلالها نوعاً آخر أكثر صحة يفرض نفسه مكانه، ويكون له حضور مساو للقراءة البطريركية التي تعكس رؤية الرجل فقط، الأمر الذي يتماشى مع نظرية ما بعد الاستعمار التي تطلب توخي الحذر لدى التعامل مع منظومات القيم التي طوّرها الرجل الغربي المتفوّق، والتي منحته مجموعة من الامتيازات يغدو من الصعب أن يتنازل عنها بسهولة، وهي الامتيازات التي مكنته آليات القمع المتوالية من الحصول عليها، يتمثّل بعضها في عملية إسكات الآخر وإخراسه (محمود ابراهيم، دت: 14).

ظهرت دراسات ما بعد الحقبة الاستعمارية على أنّها ردّ فعل على تحيّزات الخطاب الاستعماري وما لبثت تلك الدراسات أن تعمّقت في سائر أنحاء العالم فشملت المرأة والجنوسة[2]. والجنوسة مفهوم تمحور حول الدراسات النسائية في كافة المجالات. لعلّ أهم ما أقرّه الباحثون هو أنّ الجنوسة لا علاقة لها بالجنس البشري البيولوجي، فالجنوسة ليست بنية طبيعية وليست حتمية بيولوجية وإنّما تركيبة اجتماعية لا علاقة لها بالتكوين الجنوسي البشري (الرويلي والبازغي،2005: 154-159).

أخذت قضية الجنوسة بعدها النظري والتحليلي فظهر أنّ المرأة لم تكن تابعة فقط بسبب هيمنة المفاهيم الاستعمارية إنّما هي تابعة أيضا بفعل الثقافة الذكورية. والاستعمار

(1) patriarchal
(2) Gender

والذكورية أحالا المرأة تابعة. ولهذا حاولت هذه الدراسات إنصاف المرأة والنظر إليها كائناً اجتماعياً فعّالاً (إبراهيم، 2011: 55–79).

هذه الدراسة تهدف الوصول إلى الغايات التالية:

1–الكشف عن رؤية الكاتبة المعاصرة بالنسبة للمرأة من خلال أعمالها.[1]

2–التعرف إلى السمات البارزة للمرأة البطلة في أعمال رضوى عاشور الروائية.

وللعثور على الأهداف المنشودة تحاول الإجابة عن الأسئلة التالية:

1–كيف تجلت شخصية المرأة المثقفة في أعمال رضوى عاشور؟

2–ما أهم المؤثرات والاتجاهات الفكرية التي وجهت آراء رضوى عاشور في مجال المرأة؟

1–1.خلفية البحث

«المرأة المثقفة في الرواية العربية الحديثة» (2007) للمؤتمر الأول لشعبة القصة والرواية باتحاد الكتاب. هذا الكتاب يجمع بين العمق العلمي بأبحاثه الجادة التي صاغتها أقلام النقاد والباحثين. وتدور الأبحاث حول محورين رئيسين: المرأة المثقفة وكيف ترى نفسها، والرجل ومشاهداته للمرأة المثقفة. ويضم المحوران أربعة محاور: لطيفة الزيات وجيل الريادة، ومقاربة أولية للمرأة المثقفة في الرواية العربية، والمرأة والقهر الثقافي في أعمال طه حسين القصصية، وتجليات الدور النسوي في الرواية العربية.

«المرأة في الرواية الجزائرية» (2009) لصالح مفقودة. يقوم المؤلف في هذا الكتاب بتحليل قضية المرأة في مجتمع الجزائر. كما يتحدّث عن الرواية وعلاقتها بالواقع وتعبيرها عن المرأة، وهو الموضوع الأساسي الذي يمتد عبر ثلاثة أبواب هي: الجانب الجنسي، والأنثوي، وتمرّدها على الأوضاع والقيم. ثمّ الإشارة إلى المصادر التي استقى منها الروائيون صورهم عن المرأة مثل الأسطورة، الخرافة، التراث، التاريخ والحضارة الغربية. ويتناول الملامح العامة لصورة المرأة في الرواية الجزائرية ودورها في المجتمع بين النمطية والانتقالية متطرقاً إلى شخصية المرأة الثورية والمرأة المتعلّمة الممتثلة في الطالبة الجامعية.

«غادة السمان وغزاله عليزادة (الأدب المقارن والنقد الروائي)» (2009–2010)

(1)

لسمية آقاجاني يزدآبادي. أطروحة الدكتوراه في جامعة دمشق. تعالج الباحثة روايات غادة السمان كلّها وهي: بيروت 75، كوابيس بيروت، ليلة المليار، الرواية المستحيلة- فسيفساء دمشقية وسهرة تنكرية للموتى. كما تتناول روايات غزاله عليزاده جميعها. تعتمد هذه الدراسة على منهج المدرسة الأمريكية والسلافية. وتخصص قسماً من دراستها إلى جماليات الشخصية في نصوص غادة السمان وغزاله عليزاده. ونماذج مختارة للشخصية هي: الشخصية المثقّفة وعلاقتها بالإصلاح والاغتراب والمرأة، الشخصية الانتهازية وشخصية الآخر الغربي وسماتها الإيجابية والسلبية.

«المروي له وسيلة حداثية في الرواية التاريخية المعاصرة (رضوى عاشور نموذجاً)» (2014) لسلوى شكري شاكر النعيمي. هذه الدراسة تحاول من خلال دراسة مواقع وأصناف المروي له أن تكشف عن العلاقة بين الرواي والمروي له، طريقة حداثية للتعامل مع المروي له طريقة تعترف بكونه مكوّناً أساسياً من المكوّنات السردية.

بعد أن استعرضنا الدراسات السابقة في مجال شخصية المرأة في الرواية العربية على مختلف أنواعها. رأينا كيفية ظهورها بالنسبة للظروف المحيطة بها. وكذلك استطعنا أن نتعرّف إلى شخصية المرأة بشيء من التمحيص في ساحة الرواية. وطبقا للاستعراضات السابقة نستنتج أنّ النظرة العامة للمرأة العربية تقتصر على ردّة فعلها أمام المجتمع الذكوري فحسب. والدراسات السابقة تقوم بتحليل شخصية المرأة من رؤية الأم، الزوجة، البنت، الأخت، التقليدية، المتمرّدة والمثقفة، المستلبة، الخاضعة، المتعلمة، الحبيبة، المومس وإلخ... لكنّ هذه الدراسة تبحث عن شخصية المرأة المثقّفة وموقفها من المرأة العربية، السلطة، السياسة على أساس آراء إدوارد سعيد حول شخصية المثقّف في «أثقل من رضوى».

2-الإطار النظري

فوجد المثقف العربي نفسه بين المركزية والهامشية في الآن نفسه، فمركزيته تتجلّى في أنّه: مثقّف مستقلّ في أقصى حد، ذو رؤية اجتماعية متقدّة وقدرة مدهشة على نقل أفكاره. أمّا هامشيته فتظهر عندما يطرح هذه الأفكار «ليس فقط على نحو معارض سلبيا، بل يكون مستعدّا لقول ذلك علانية وعلى نحو نشط» (سعيد، دت: 32-35).

ثَقِفَ الشيء ثَقفاً وثقافاً وثُقُوفةً: حَذَقَه. ورجل ثقفٌ وثَقِفٌ وثَقِفٌ: حاذقٌ فَهِم (ابن منظور، لا تا/ج9: 19).

هي نموذج من الشخصيات التي تتمتع بموهبة خاصة تمكّنه من حمل رسالةٍ ما أو فلسفةٍ ما أو رأيٍ ما وتجسيد ذلك والإفصاح عنه إلى مجتمعٍ ما وتمثيل ذلك باسم هذا المجتمع. وهذا الدور له حدٌّ قاطعٌ أي فعّال ومؤثّر ولا يمكن للمثقّف أداؤه إلّا إذا أحسّ بأنّه شخص عليه أن يقوم علناً بطرح أسئلة محرجة وأن يواجه ما يجري مجرى الصواب أو يتّخذ شكل الجمود المذهبي وأن يكون فرداً يصعب على الحكومات أو الشركات أن تستقطبه وأن يكون مبرر وجوده نفسه هو تمثيل الأشخاص والقضايا التي عادة ما يكون مصيرها النسيان أو التجاهل والإخفاء. ويقوم المثقّف بهذا العمل على أساس المبادئ العامة العالميّة وهي أنّ جميع أفراد البشر من حقّهم أن يتوقعوا معايير ومستويات سلوك لائقة مناسبة من حيث تحقيق الحرية والعدل من السلطات الدنيوية أو الأمم (سعيد، 2006: 43-44).

يعرف المثقّف بأنّه ذلك الشخص الذي ينتج كلّ الدوال اللفظيّة والبصرية من شعراء وناثرين وكتّاب وموسيقين وفلاسفة وتشكيليين وسينمائيين ومسرحيين. وهذا إن دلّ على شيء فإنّما يدلّ على مدى تعدد فروع الثقافة وكثرة أقطابها ومسالكها وتعدد مزاوليها من البشر. ويمكن أن نميّز بين المثقّفين بفتح القاف والمثقّفين بكسر القاف. فالفئة الأولى؛فالمقصود بها، الذين يشتغلون بكلّ ما هو ذهني ابتداء من المربي والقارئ العادي إلى المرؤوس والمنفذ. أي كلّ من يعرف القراءة والكتابة؛ ولكن غير قادرة على قيادة المجتمع وتنويره ثقافياً بسبب عجز هذا المثقف عن الإبداع والإنتاج الفكري. أمّا الفئة الثانية؛ فالمقصود بها، الذين يشتغلون في أعمال تسعى لنشر الثقافة بين الجماهير الواسعة من الناس أو إلى تكوين فئة المثقفين العاديين. أي إنّها الفئة المنتجة والمبدعة التي تساهم في تحريك المجتمع ثقافياً وعلمياً وفكريا بنشر المؤلفات والمقالات والوثائق ليستفيد منها الجميع (حمداوي، 2016: 157).

يوسّع غيرهم من دلالة الكلمة حتى تشمل كلّ من حصل على قدر من التعليم يؤهله لإطلاق تعبيرنا الشائع عليه أي المثقّفين أو المتعلمين حتى وإن لم يبلغ علمه درجة التخصص الدقيق (بمعني التعمق المفضي إلى التأمل الذي قد يفضي إلى الإتيان بنظرات جديدة قد تشكّل وقد لا تشكّل مذهبا خاصّا به). بل إن نقادا آخرين يزيدون من

توسيع دلالة الكلمة بجعلها تدلّ على كلّ من يتمتع بقدر ما من "الوعي الاجتماعي" أو "الوعي السياسي"، ويتطرف بعض اليساريين في هذه الدلالة بحيث تشمل كلّ من يفكّر على الأطلال ولما كان التفكير خصيصة إنسانية، وبهذا تفقد خصوصيتها ومعانيها الاشتقاقية والاصطلاحية الأساسية. وفي هذا المجال وجد إدوارد سعيد أن المحور الرئيسي الذي يدور حول هذه الدلالات جميعا هو علاقة المثقف بالمعنى العربي بالسلطة (سعيد، 2006: 10).

الشخصية المثقّفة[1] هي من الشخصيات التي يبحث الباحثون عنها من جوانب متعددة وأشارت إدوارد سعيد في كتابه « تمثّلات المثقّف» إلى هذا الموضوع منها: الشخصية المثقّفة والسلطة، الشخصية المثقّفة والثورة وإلخ. يعود سبب اختياري للشخصيّة المرأة المثقّفة إلى كثرة حضورها (وهي الشخصية الرئيسة) في المجلّدين من السيرة الذاتية. وقد قسّمنا شخصية المرأة المثقفة حسب موافقها وأزماتها التي مرّت بها طوال الرواية إلى ثلاثة مواقف، وهي: المثقّفة النسوية[2]، المثقّفة المتحدية[3]، المثقّفة الثورية[4].

1-2. المثقّفة النسوية

ويتحدّث سعيد عن العلاقة بين المرأة والمثقّف ويقول في هذا المجال: «في مقالة فرجينيا وولف[5]"غرفة للمرء خاصة به" وهي نص حيوي للمثقفين العصريين من دُعاة الحقوق النسوية، فعندما دُعيت وولف إلى إلقاء محاضرة عن النساء والأدب القصصي، قررت منذ البدء أن ذهابها إلى أبعد من مجرّد ذكر استنتاجها- وهو أنّه إذا كان للمرأة أن تكتب القصص فلا بدّ أن يتوافر لها المال وتكون عندها غرفة خاصة بها- يحتم عليها تحويل مقترحها إلى حجة منطقية وهذا بدوره يُلزمها بنسق تصفه على النحو التالي: يستطيع المرء أن يبيّن فقط كيفية توصّله إلى الإيمان بالرأي الذي يؤمن به، أيّا كان هذا الرأي». وتقول وولف إنّ الكشف عن حجّتها هو بديل من قول الحقيقة مباشرة، لأنّ الحديث عن الجنس سوف يؤدي على الأرجح إلى مشاجرة بدل المناظرة: بإمكان المرء فقط إعطاء أفراد جمهوره الفرصة كي يخرجوا بالاستنتاجات التي يتوصّلون إليها

(1) Enlightened
(2) Feminist intelectual
(3) Fighter intellectual
(4) Revolutionary Intellectual
(5) Virginia Woolfe

بأنفسهم وهم يراقبون محدوديّات محدّثهم وانحيازاته وخاصيّاته. وممّا لا ريب فيه أنّ هذه المناورة تنجح في نزع الفتيل، لكنّها تنطوي أيضا على مجازفة شخصيّة. فهذا المزيج من الرهافة الهشّة والحجة المنطقية يزوّد وولف ثغرة مثالية تمكّنها من دخول موضوعها، لا كصوت دوغماتي يردّد حرفيّا كلمات المستشهد بأقواله، بل كمثقّف يمثّل «الجنس الضعيف» المنسّي، بلغة ملائمة تماما لهذه المهمّة. وبالتالي فإنّ جدوى «غرفة للمرء خاصة به» تكمن في إفراز حسّ جديد من اللغة والسلطة اللتين بهما ما تسمّيه وولف المجتمع الأبوي تجاه الوضع الانقيادي للنساء، الذي من المعتاد أيضا عدم التفكير فيه (سعيد،1994: 47-48).

2-2. المثقفة وموقفها من السلطة

إنّ العلاقة بين المثقف والسلطة قد تكون علاقة جدلية محضة مبنية على التحدي والنقد والمواجهة والصمود والنضال المستميت والصراع من أجل تحقيق الحرية وإحقاق الحق وإبطال الباطل وتقويض دعائم الفساد السياسي. وغالباً ما يكون رد فعل أصحاب السلطة تجاه هذا المثقف العضوي إما باستعمال الإغراء المالي والمعنوي (حظوة المنصب) وإما باستخدام القوة و العنف من نفي واعتقال وتعذيب وإما باستعمال خطاب اللامبالاة والإقصاء والتهميش أو عبر طرده من وظيفته أو اللجوء إلى تسييجه بالإقامة الجبرية. إنّ هناك ثلاث علاقات جوهرية بين المثقف والسلطة، ويمكن اختزالها في علاقة التحدي؛ التي ينهجها المثقف العضوي ضد السلطة المستبدة حيث يدخل معها في صراع نضالي قصد نصرة الحق و التصدي للفساد. وعلاقة استلاب؛ التي يمثّلها المثقف المتأقلم الذي لا يهمه سوى خدمة مصالحة الشخصية والدفاع إيديولوجيا عن مصالح الطبقة الحاكمة. وعلاقة الحياد؛ التي يمثّلها الرومانسي الذي يلامس المشاكل الإنسانية بسطحية فجة وتخييل ذاتي مجرد وتعبير رمزي غامض(حمداوي،2016: 169-170).

2-3. المثقفة الثورية

المثقف الثوري هو الذي يحاول تغيير الواقع ودفعه إلى مرحلة جديدة لم تكن موجودة من قبل. فللثورة مفاهيم كثيرة في الأدب السياسي الاجتماعي والاقتصادي والعلمي المعاصر، فهي تستخدم في سياقات ومعان عديدة. وهي غالبًا لا تؤدي إلى تغيرات سياسية مباشرة ولكنّها تحقق بشكل تراكمي انتقال المجتمع من حال إلى حال (تعيلب،2014: 25).

نبذة عن حياة رضوى عاشور

من بين الأعمال الأدبية النسائية وقع اختيارنا على أعمال الكاتبة المصرية رضوى مصطفى عاشور. ولدت رضوى عاشور الكاتبة المصرية المعاصرة في مدينة القاهرة سنة 1946م. كانت قاصة و روائية وناقدة أدبية وأستاذة جامعية مصرية. درست رضوى اللغة الإنجليزية في كلية الآداب وتخرجت عام 1967م. لكنها لم تعيّن معيدة فيها، لعدم رغبة من رئيس قسم اللغة الإنجليزية آنذاك رغم تفوقها وحصولها على ليسانس اللغة الإنجليزية بامتياز مع مرتبة الشرف، ولكنها عينت معيدة في جامعة عين الشمس. بدأت التدريس في سن الحادية والعشرين. في عام 1972 حصلت رضوى عاشور على شهادة الماجستير في الأدب المقارن من كلية الآداب قسم اللغة الإنجليزية من جامعة القاهرة وكانت فى الوقت نفسه تدرّس في جامعة عين الشمس، وتشارك الطلاب احتجاجاتهم في ميدان التحرير احتجاجا على الأوضاع الاقتصادية والسياسية في عهد الرئيس أنور السادات. غادرت القاهرة إلى الولايات المتحدة الأمريكية لدراسة الدكتوراه ولم يكن سبب رحلتها إلى أمريكا رغبة في الدراسة فيها وحسب، بل لاهتمامها بالأدب الأمريكي الأسود (جراد، 2010: 25-26).

من يمعن النظر في حياة رضوى عاشور وأعمالها الروائية فلا بدّ له الاعتراف بأنّها شخصيّة فذّة اجتمعت فيها القيم الأخلاقية والإنسانية والموهبة الأدبية النقدية معاً، ومازالت تحتفظ بتلك القيم حتى لفظت أنفاسها الأخيرة. «تشهد حياة رضوى على المقاومة ضدّ الاستعمار والسلطة والقمع، سواء أكان القمع تمارسه الحكومة وأجهزتها المتعددة أو الأشخاص ذوو المصالح الفردية والحزبية، كما تشهد حياتها على دعم صاحبها الكبير لقضيّة فلسطين ودفاعها عن الشرائح المضطهدة التي تحمّلت أنواع الأذى والتعذيب الجسدي والروحي من قبل السلطات الاستعمارية والأنظمة الديكتاتورية أو سائر المؤسسات المتنمية إليها» (طهماسبي، 1394: 154).

«أثقل من رضوى»

يتكوّن «أثقل من رضوى» من ثلاثة وثلاثين فصلًا، وثلاثمائة وثمان وتسعين صفحةٍ. الكاتبة من خلال ثلاثة وثلاثين فصلًا تتحدث عن همّ ثقيل أو مسؤولية جسيمة. تعبّر رضوى مباشرة عن تجربتها في مواجهة المرض الذي كان متزامنًا مع اندلاع ثورة مصر عام2011م. فتحكي عن آلام ذاتها الأنثوية، وأسرتها، وفساد الجامعة، وتعذيب الطلاب

والثورة دامجة الذاتي مع الجماعي في صورة متداخلة يتضافر فيها العام بالخاص. خلاصة القول أنّ حديث رضوى عن تجربتها الخاصة، وهي الإصابة بالمرض، مع تجربتها العامة في مصر المصابة بأزمة حادة، تشكل سمة أساسية من سمات شخصية المثقّف على أساس رأي إدوارد سعيد الذي يعتقد أنّ المثقّف هو الشخصية التي تدمج حياتها الشخصية بالجماعية ولا تنتبه إلى نفسها فحسب. قيمة «أثقل من رضوى» ونوعيتها ليست في كونها مواجهة المرض الذي شارفت بسببه الكاتبة على الموت؛ وليس في تجربة الكفاح والصمود لمواجهة الحياة. ومشقة تربية الابن «تميم» في ظلّ نفي الزوج «مريد البرغوثي» لأكثر من عشرين عامًا، بل في كونها أنموذجًا للإصرار على طرح رؤية مليئة بالأمل، أو قد تسعى إلى طرح دلالات مغايرة مثل الهروب من الواقع الراهن.

لذلك تنتهي هذه الرواية بالدعوة إلى الحياة. ولقد أصيبت بالسرطان وانتقلت إلى الولايات المتحدة حيث أجرت العملية بعد العملية، ولم تشعر بأن الموت بات قريباً منها هذا القرب. واختارت أن تنهى الرواية بشكل خاص فتعود بالأحداث إلى نقطة البدء، فمشهد الاستهلال المليء بالألم بعد وفاة طارق، الأخ الأكبر لرضوى وبعده بخمسة أسابيع رحيل الأم، ثمّ تنغلق في المشهد الأخير المفعم بالأمل حيث يجتمع الأولاد والأحفاد وأبناء الأحفاد وغيرهم من الأهل والأصدقاء لكي تقول إنّ الحياة مستمرة رغم مشاكلها.

3-القسم التطبيقي

3-1.رضوى عاشور/ المثقّفة النسوية

إحدى السمات الأساسية للشخصية المثقّفة هي الكتابة؛ يذهب إدوارد سعيد في هذا المجال إلى: كان تصويري للمثقّف كمنفيّ، وهامشيّ وهاوٍ وخالق لغة تحاول قول الحقّ للسلطة، وحجتي هي أن المثقفين أفراد عندهم الاستعداد الفطري لممارسة فن التعبير عمّا يمثّلون، سواء كان ذلك قولًا أم كتابة (سعيد،1994: 17-29). بناء على أنّ لكلّ كاتب دافعًا أو أكثر حفّزه للكتابة عن حياته، تتحدث رضوى عاشور «الشخصية الرئيسة» عن غرضها الرئيس لكتابة حياتها:

«عندما غادرت طفولتي، وفتحت المنديل المعقود الذي تركته لي أمي وعمّتي وجدت بداخله هزيمتهما، بكيت، ولكني بعد بكاء وتفكير أيضًا ألقيت بالمنديل وسرت، كنت غاضبة» عدت للكتابة عندما اصطدمت بالسؤال: (ماذا لو أن الموت داهمني؟) ساعتها قررت أنّي سأكتب كي أترك شيئًا في منديلي المعقود، وأيضًا لأنني تنبهت وكنت في الرابعة والثلاثين من عمري، أن القبول بالنسبي أكثر حكمة من التعلق بالمطلق، وأن الوقت حان للتحرر من ذلك الشعور بأن عليّ أن آتي بما لم يأت به الأوائل أو أدير ظهري خوفًا وكبرياءً» (عاشور،2013: 240).

وأهم باعث يمكن أن يميّز رضوى عاشور عن أمّها وعمّتها هو التمرّد على الأعراف وكسر القيود الاجتماعية والتغلّب على كلّ المشاكل والرغبة في التحرر... وهذه الأمور تحقق بواسطة الكتابة للمرأة. وهي بالنسبة إلى أمّها وعمتها تتمرّد على الأعراف وتكتب سيرتها كي تثبت وجودها الأنثوي في منديلها المعقود. وحين تقول «ماذا لو أن الموت داهمني؟» يعني أنّ الهاجس الأساس الذي وراء كتابتها هو الإحساس بوطأة الزمن ووقوع الموت ونسيانها من قِبل الآخرين. علاوة على هذا والذي دفعها لترك شيء عن حياتها هو وعيها بذاتها وإعلان ذاتها كامرأة لأنّها كما أشارت لا تشعر بوجودها إلا من خلال إنجاز عمل تقوم به في حياتها وتتركه في منديلها المعقود. ولكن بعد إنجازها لعملٍ ما تشعر بأنّ لها دورًا فاعلًا في الحياة. حينما يكون الباعث وراء الكتابة هو العثور على معنى هذه الحياة فإنّ الكاتب ينتقي المواقف التي تكون لها صلة وثيقة بالحيرة والقلق الذي سيطر على شخصيته وتسبب في هذا النقص ويعاني منه لمراحل عديدة من حياته دون أن يكتشف السبب. ومن ثمّ يعلن للناس بأنّه اكتشف الحقيقة التي

كانت تغيب عن عينيه.

هذا الإبداع النسائي يجمع بين امرأة–هي رضوى عاشور– تصاب بمرض خبيث وتضحي بكلّ شيء لأجل الشفاء، فيما تتحمل مسؤوليتها تجاه أهلها وبلدها، وبين البلد، مصر التي تصاب بورم الاستبداد والفساد الخبيث منذ فجر التاريخ وتضحي أيضًا بفلذات أكبادها في الميادين والأقسام والشوارع لأجل الشفاء. كلتاهما البنت والأم تدفع نقدًا مقدّمًا ولا تأخذان ما دفعتا لأجله، لكنهما لا تيأسان فهمًا وإن كانت مسؤولياتهما وهمومهما ثقالا فإن رسوخهما :«أثقل من رضوى». ودون أدنى شك، فإنّ رضوى مثلث المثقف العربي الأصيل، وبنت بأعمالها هرمًا مهيبًا للمرأة المكافحة والمناضلة (إسماعيل، 2015: 25).

الحديث عن النساء في أعمال الكاتبات المثقّفات يعود إلى كون «المثقف دائمًا يختار إمّا مناصرة الأضعف، والأسوأ تمثيلًا، والمنسيّين أو المتجاهلين وإمّا الانحياز إلى الأكثر قوة» (سعيد،1994: 45).

«هذا الكتاب ليس رواية بل سيرة ذاتية، تتطابق فيها المؤلفة والراوية والمرويّ عنها. لا تأتيني لا أدري من أين، امرأة اسمها آمنة أو مريمة أو ندى أو رقيّة، يشرد الخيال خلفها ليلتقط لحظة عاشتها أو بيتًا أقامت فيه» (عاشور،2013: 252).

إن رضوى أديبة مثقفة مناصرة للنساء، لأنّها كتبت في معظم الفنون الأدبية كالرواية وغيرها عن المرأة العربية. وكانت تجد في أعمالها الأدبية ميدانًا واسعًا للحديث عن تجاربها واستعادة كثير من الأحداث التي مرّت بها في حياتها. وأيضًا حديثها عن بعض الشخصيات النسائية الروائية التي تشبه شخصيتها من بعض الجوانب. تحيلنا رضوى إلى خارج النص إلى بعض كتاباتها الأخرى التي ترجع إلى ما قبل كتابة سيرتها الذاتية، ومن ذلك روايتها القصيرة سراج وبطلتها آمنة التي تتبعت حكايتها إلى أن نشرتها باسم سراج كما تعد شخوص رضوى عاشور النسائية علامات مميزة في منجزها السردي كله. ولذلك تحيلنا الكاتبة في الفصل الحادي والعشرين من سيرتها إلى شخصيات أو بطلات أعمالها مثل آمنة رواية «سراج»–ندى رواية «فرج»–مريمة رواية «ثلاثية غرناطة» ورقية رواية «الطنطورية». وحديثها عن بطلات رواياتها يدلّ على أنّها كانت مغرمة في تحولّ وإصلاح النظرة السيئة بالنسبة إلى المرأة في المجتمع العربي.

يمكننا القول إن الوعي السياسي كان يستند في الأساس إلى منطلقات ذاتية في البحث عن الانتماء وعن الهوية وكان الدخول في مجال السياسة بدافع معالجة الهموم الشخصية. وجدت رضوى في الذات القلقة انتماءها إلى مصر والانصهار فيها. وكان الإنجاز الأدبي هو الوسيلة الأساسية للخروج عن هموم الذات والانضمام إلى الجماعة. فالموهبة الإبداعية تتيح للمرأة المثقّفة دخول الحياة العامة. ولقد ارتبط هذا الخروج إلى الحياة العامة بالنسبة لرضوى أولًا بغياب السلطة الأبوية وثانيًا بتحوّل اجتماعي سياسي. وارتبط وعي المرأة بالسياسة بعد حركة الإصلاح التي تزعمها دعاة الفكر الاجتماعي وظهر هذا الوعي السياسي لدى المرأة بأشكال مختلفة. وقد لعبت السيرة الذاتية النسائية دورًا كبيرًا في إبراز دور المرأة السياسي منذ الحركة الوطنية المبكرة، وبذلك ارتبطت قضية المرأة بقضية الوطن منذ وقت مبكّر. في الفقرة التالية تتحدث رضوى عن دور النساء والبنات في الثورة العربية. وتركز رضوى على شخصية «هند» وهي الفتاة الواعية بالنسبة إلى حقوقها السياسية التي شاركت في الثورة لكن قوات الأمن قاموا بالاعتداء عليها لإثارة الرعب في النساء اللاتي شاركن في ميدان التحرير حتى يمنعوا حضورهن بهذا الطريق. يمكننا القول إن حديث رضوى عن هند يرجع إلى هاجسها الرئيس وهو الحضور النسائي في مجال السياسة.

«كانت هند تبكي والأم تصيح دون أن تبكي، والأخ يهدّد بالضرب. تكرر هند أنّها لم تقترف أي خطأ وستواصل المشاركة في الثورة، والنزول إلى المظاهرات، وستذهب إلى كليتها. وجه طفلة، تمامًا كوجهها في الفيديوهات التي رأيتها لها وهي في المستشفى وفي المحكمة. أسمر مدوّر، تحت العين اليسرى كدمات زرقاء كبيرة، جفن العين كحليّ مكتوم. في الوجه تورّم يخل بملاحته. رأسها ملفوف بالضماد، وكذلك يدها اليسرى. كانت تجلس على كرسيّ متحرك تنتحب وتصيح» (عاشور،2013 :217).

تشير رضوى إلى حكاية هند البنت التي شاركت في الثورة وكانت محتجة على الظروف القاسية. وأول ظلم فعلته قوات الأمن في ميدان التحرير كان قلع الحجاب وتعرية البنات أمام الناس كلّها، حيث استقبلها الضباط والعساكر بالألفاظ النابية والضرب بالأرجل في البطن والرأس. ثمّ انتقالها إلى غرفة التعذيب. وحديث رضوى عن الأوضاع السياسية في مصر صراحة يكون من أهم سمات الشخصية المثقفة التي تتحدث عن الذين يظلمون عليهم بأشدّ الأدوات القمعية.

وهي تقول:«**دخل ضابط وطلب مني ومن البنات أن نردد وراءه إحنا... مش سامع قولوا كمان» لفظ بذيء ما اقدرش أقوله واستمر في ضربنا حتى الساعة الواحدة ليلًا وكلّ ضابط يدخل يقول لنا: « أنا ماجربتش العصا الحديد دي عليكم ويضربنا بها حتى تنكسر، كما تمّ تهديدنا بالاغتضاب»** (المصدر نفسه:218).

إنّ رضوى لم تقل في سيرتها هذه إنّ أمرًا ما ثقل عليها سوى حين حديثها عن مصير هند البنت التي تتعرض للاعتداء بسبب مشاركتها في الاحتجاج على العنف للعثور على إثبات حضورها في إطار السلطة. هند هي الطالبة الواعية بالنسبة إلى ذاتها الأنثوية لم تختر الصمت تجاه تعريضها للعنف بل تصرح علنًا عن قسوة وعنف السلطة للبنات المشاركات في الثورة المصرية قائلة إنّها لم تقترف إثمًا وستواصل المشاركة في الثورة والنزول إلى المظاهرات وستذهب إلى كليتها لأنّها تهدف إلى أنّ السلطة لن تقدر على كبت البنات محاولة إلى إيجاد حاجز من نوع الخوف وإثارة الرعب في وجود البنات اللاتي يشاركن الثورة حتى من خلال استخدام التعرية والاعتداء.

«**حاولت أن تكون خطوتي أكثر اتزانًا، كأنّ كلّ شيء على ما يرام. نعم ثَقُل عليّ الأمر، وثقل أكثر عندما ضيّعنا الطريق مرة أخرى فوجدتنا نسير في شوارع لا أعرفها على مشارف العاصمة كانت حكاية هند التي قُبض عليها مع زميلاتها الثماني أثناء التظاهر السلمي عند مجلس الوزراء، وتعرية البنت التي لا نعرف اسمها (سمّاها الناس «ست البنات») واجتماع العسكر عليها وضربها جزءًا من حكاية الفتيات اللائي عُذبن وسُحلن على مدى الشهور السابقة كأن سحل النساء وإهانتهن، من كشف العذرية إلى الضرب المبرّح إلى التهديد بالاغتصاب خطة مقصودة. أين؟! في المتحف المصري. في مجلس الشورى. على خلفية خطاب عن حضارة عمرها سبعة آلاف عام، وطنطنة عن أعراس الديمقراطية. نعم أيّها القارئ الطيّب أتفق معك. السلطة في بلادنا مُغرمة بالمفارقات الفجّة**» (المصدر نفسه:220).

رضوى ليست كالمثقفة التقليدية التي تقدّم نفسها وتصوّر ذاتها على أنّها مستقلة عن الطبقات الاجتماعية بل هي المثقّفة الحقيقية التي تسمح لنفسها بالاحتكاك بطبقات مجتمعها والمساهمة في إخراج أفراده من براثن الظلم والفساد وسيطرة الأيديولوجيات الزائفة. إنّها تعمل على إنجاز المشروع السياسي والمجتمعي الذي يعنى بحاجات مواطنيها لاسيما الطلاب الجامعيين. وتعيش هموم عصرها ولهذا تعمل على نقل الوقائع

والأحداث وإخراجها من عالمها الواقعي على عالم الفن والإبداع ثمّ تنتقد تناقضات المجتمع وفساد النظام بشكل مباشر. من خلال سيرة رضوى نستطيع أن نتعرف على موقفها من السلطة. حين قراءة «أثقل من رضوى» نرى في وجوه الشخصية المثقّفة والرئيسة قلقًا وراء الأحداث. رضوى ترفض أن تعيش حياة عادية تحتفي بالسائد. تعلن أثناء كتابتها عن تمرّدها بوضوح، المرأة التي تدرک بوعي في داخلها وداخل مجتمعها. يتحدث إدوارد سعيد عن المثقّف في ذاک الذي يرفض ويصادم ويحتک ويتفاعل ويتطور ولا يستجيب لحالة السكون ويكون صوت نفسه ويعبر قبل كلّ شيء. ولهذا تكشف الستار عن مدى استبداد السلطة تجاه الأساتذة والطلاب لذلک تؤمئ إلى الواقعة التي حدثت لهند. في الحقيقة الغرض من تمسک قوات الأمن بالعنف على النساء في ميدان التحرير هو منع الدخول النساء في مجال السياسة. جذور هذا الأمر يرجع إلى نظرة المجتمع في قضية المرأة إذا كانت هذه النظرة نظرة دونية، توفق قوات الأمن للعثور على غرضهم. لذلک فإن تشجيع النساء للحديث عن اعتداء قوات الأمن عليهن خير طريق لكبت السلطة الظالمة تجاه النساء. ونصل إلى غرض رضوى من خلال حديثها عن هند – البنت التي تدافع عن نفسها تجاه اعتداء قوات الأمن عليها من طريق شرح كل ما يمّر بها أثناء مشاركتها– وهو تشجيع البنات أو النساء بالدفاع عن أنفسهن خلال الاعتراف بالحادثة التي وقعت عليهم دون أي خوف و دون أي مكث وتريّث. والحقيقة التي يجب تأكيدها أنّ نظرة المثقّفين بالنسبة إلى المرأة تنشأ من خلال أزمتهم الشخصية ومن خلال احتياجاتهم الفكرية العامة. ولهذا نلاحظ تأكيد رضوى على حضور النساء والفتيات في الثورة وذلك ينبع من هاجسها الرئيس وهو تحقيق حرية النساء من خلال إحقاق حقوقهن.

2-3. رضوى عاشور/ المثقفة المتحدية

ما بين الفصل الأول والفصل الأخير، تختار رضوى مقاطعًا من حياتها الشخصية والعامية، مازجة بينها وبين مصر. وهكذا فبعد الفصل الأوّل تتحدث عن واقعة الرابع من نوفمبر 2010م التي تعبّر أولًا عن مشاركة الكاتبة في مواجهة «قضيّة إنشاء وحدات الأمن الجامعي في جامعة عين شمس» التي تعمل فيها من أكثر أربعين عامًا. وثانيًا التعبير عن رفضها لهذه القضية التي تخدش استقلاليةَ المؤسسة التعليميّة بشكلٍ علني صارخ. وهي تستطيع أن تتحدث عن نضال العام رغم آلامها الشخصية وهي من أهم

السمات لشخصية المثقف الذي ثمة علاقة وثيقة بين آلامه الشخصية والجماعية. ففي يوم الخميس من نوفمبر عام 2010 ولم يكن قد مضى على موت أمّها سوى مدة قليلة خرجت بثوبها الأسود إلى باحة قصر الزعفران (مقر رئاسة جامعة عين شمس) لتشترك مع زملائها في قضية حرية الجامعة ومنع الأجهزة الأمنية التي تمارس نشاطها ضد الطلبة.

ثُمَّ تشير الكاتبة إلى كتّاب التقارير السياسية من طلاب الجامعات وغيرهم. وتطرح أسئلة وأفكارًا شائكة ومهمة عن القمع المستور والقمع المعلن في جامعة عين شمس. كما تتناول مواقف عن خيانة بعض المسؤولين. وأول ما تنتبه إليها رضوى غياب الحرية في المجتمع الذي تجد فيه التناقض بين ما تدعو إليه السلطة وما تمارسه في الواقع اليومي. مثلما فعل ماجد الديب وهو ينكر حضور البلطجية في ساحة الجامعة ويدافع عنها. لهذا فإن رضوى المثقفة تمهّد الظروف لتعبير عن وقوع الثورة.

«سلّمنا صورة من البيان وصورة من نص المحكمة الإدارية العليا بشأن عدم قانونية وجود الحرس الجامعي، إلى ضبّاط الأمن الواقفين أمام باب قصر الزعفران» (عاشور،2013: 12).

الحقيقة المركزية بالنسبة إليّ كما أعتقد هي أنّ المثقّف يجب أن يكون شخصًا ليس من السهل على الحكومات أو الشركات استيعابه، وأن يكون مبرّر وجوده تمثيل كل تلك الفئات من الناس التي تُنسى ويُغفل أمرها. ويقوم المثقف بهذه المهمّة على أساس المبادئ العمومية (سعيد، 1994: 28).

تشهد رضوى ضدّ السلطة وفسادها من منطلق شخصي. وتعرض اهتماماتها أمام جمهور أو مجموعة من القراء. والمسألة لا تقتصر على كيفية تعبيرها بوضوح عن هذا الفساد الجامعي بل تتعدّاه وتحاول العثور على تعزيز قضية الحرية والعدالة. فهي تصر على الكشف عن هذه القضايا بعد طول تفكير تؤمن بها. تعي أن السياسة هي في كل مكان، ولا منجاة منها بالفرار إلى عالمي الفن والفكر النقي. وتحارب بشجاعة النظام الحاكم في جامعة عين شمس التي تغفل عن أهم المعايير الإنسانية وهي غياب الحرية.

ولذلك تطالب إلغاء الحرس الجامعي الذي كان يتدخل في كلّ شيء بدءًا من تعيين السعاة وحتى اختيار العمداء ورؤساء الجامعات. حيث تكشف الستار عن الأمن الذي يسلط بلطجيته على الجامعة ورئيس الجامعة الذي يصدر بيانًا كاذبًا قائلًا إنّ الأساتذة

يحسون بقوة موقفهم مطالبين بحقّهم الذي يهمل ويغفل.

خلاصة القول أن حديث رضوى عن الاضطهاد الجامعي يؤمئ إلى تمهيدها للعثور على أهم أسباب اندلاع الثورة في مصر. الأوضاع التي شهدتها مصر قرابة الخمس السنوات الأخيرة وهي احتجاجات ثورية وممارسات فكرية سياسية قوية من كافة القوى السياسية التي مهدّت الثورة 25يناير.

إحدى السمات الشخصية للمثقّفة هي الهامشية وأنها المنفية فكريًّا في مجتمعها، أي يكون المثقّف غريبًا حين يبرز رأيها ويسلك مسلكًا مغايرًا لمنافع السلطة الحاكمة. وحين يحتج للعثور على الحرية تتّهم من جانب القوى المهيمنة بالأوصاف غير المناسبة أو غير المناسبة للفئة المنتمية إليها.

رضوى كالمثقفة المنفيّة فكريًّا من قبل السلطة الحاكمة، وهي «ماجد الديب» رئيس جامعة عين شمس، الذي ينشر بيانًا يخاطب فيه رضوى وزملاءها الذين كانوا الأساتذة الجامعيين بـ«غرباء» و«قلة مندسة». وذلك يرجع إلى وعي هؤلاء بوصفهم المثقّفين بالنسبة إلى الأوضاع المتوترة في المتجمع لاسيّماجامعة عين شمس. الأوضاع التي كانت تموج فيها عدم استقلالية الطلاب والأساتذة الذين لا يقدرون على الاحتجاج وإن كانوا محتجيّن على الظروف القاسية فإنهم يتّهمون بإثارة الشغب أو ادعاء باطل ومزيّف.

النقطة التي تشير إليها رضوى هي أنّ حضور المثقّف في كشف الستار عن فساد المجتمع موضوع هام للسلطة. والسلطة تحاول دومًا أن تجعل المثقّف في خدمتها لا ضدّها كي تقدر على ستار الظلم وكلّ ما تريد. ورضوى في مثل هذه الحالة لا تختار الصمت تجاه أقوال رئيس جامعة عين شمس الكاذبة بل تقوم بكتابة مذكّرة لتردّ على ماجد الديب الذي لا يجد سلاحًا للدفاع عن نفسه سوى التهمة والكذب متجهًا نحو الأساتذة الذين يطالبون رعاية المعايير الإنسانية في ساحة الجامعة.

«في يوم السبت السادس من نوفمبر أصدر الدكتور ماجد الديب رئيس الجامعة بيانا نشر على الموقع الإلكتروني للجامعة يحدّد عنوانه أنه رد على ما تناولته بعض الصحف ووسائل الإعلام من ادّعاءات باطلة بالتعدّي على الطلاب واستخدام البلطجة في جامعة عين شمس. يدين البيان ما يسميه اقتحام الجامعة من قبل أساتذة «غرباء»، «قِلّة مُندسة» تعمل على إحداث قلاقل..» (المصدر نفسه: 17).

فتقوم رضوى عاشور بكتابة مذكّرة تقوم فيها بإيضاح الحقائق. تتحدث رضوى عن تبعية رؤساء الجامعات المصرية للأجهزة الأمنية على نحو ما فعله «ماجد الديب» رئيس جامعة عين شمس الذي نشر بيانا على الموقع الإلكتروني للجامعة يدافع فيه عن بلطجية الأمن ولم يكشف عن اتهام جماعة 9 مارس بقيادة «عبدالجليل مصطفى» بأنها قلة مندسة غريبة اقتحمت الجامعة.

وتقول رضوى بعد قراءة بيان رئيس جامعتنا وبعد الضحك الذي أحسن أبوالطيب وصفه من ألف عام ضحك كالبكاء، جلست لكتابة مقال. بدأته بالفقرة التالية:

«أعتقد أن على الدكتور ماجد الديب رئيس جامعة عين شمس والدكتور هاني هلال وزير التعليم العالي التقدّم باستقالتيهما وبسرعة. وأعتقد أن على رئيس الوزراء إن هما أحجما عن ذلك أو تأخّرا فيه أن يقيلهما. فما حدث في الرابع من نوفمبر الماضي فضيحة بكلّ المقاييس ومستجد خطير في حياتنا السياسية والأكاديمية. وهنا لابدّ من توضيح أنّه لا جديد في استخدام البلطجية من جانب قوى الأمن بل إنّه أمر تكرر وعلى مدى عدة عقود. حدث في الجامعة من قبل وحدث في الانتخابات وحدث أيام أزمة القضاة وفي غيرها أما الجديد فهو انحياز المسؤولين المكشوف للبطجية» (المصدر نفسه: 18).

البيان الذي تكتبه رضوى يوضح ظلم النظام السياسي في مصر حيث شخصن فيها كل شيء ومنه رؤساء الجامعات. ومن هنا نعثر على علاقة التحدى بين رضوى المرأة المثقّفة والنظام الذي يحول دون حرية تعبيرها في ساحة الجامعة. وتتهمها السلطة بما لا يليق بها منها إثارة الشغب في الساحة العلمية. «المثقّف هو الشخص الذي قادر على قول الحق في مواجهة السلطة كفرد قاس وبليغ وشجاع إلى درجة لا تصدّق ولا يعرف أي قوة دنيويّة تكون كبيرة ومهيبة جدًّا بحيث لا يمكن انتقادها وتوبيخها على سلوكها» (سعيد،1994: 25).

«دخلت الكلية. نبهت عامل المصعد أنني لا أقصد القسم بل أقصد مكتب العميد. دخلت إلى غرفة العميد الذي اعتاد أن يحيّيني بحرارة كلما التقيت...قلت: لا بدّ أنّك سمعت بما حدث في الجامعة. سمعت. كتبتُ مذكّرة عن الموضوع أرجو أن تعرضها باسمي على مجلس الكلية. أعطيته المذكّرة. أقل من دقيقة ثمّ أعادها إليّ؛ لا أدري إن كان قرأها كاملة أم اكتفى بإلقاء نظرة سريعة. لا أستطيع عرضها. لماذا؟ ستقدمها

باسمي إلى المجلس. لم أجد مناسبًا أن أقطع الجلسة وأقحم على جدول الأعمال، ما دمت لست عضوا في المجلس هذا العام» (عاشور،2013: :21).

من التحديات الأساسية التي يواجه المثقف هي قضية الحرية الفردية والدفاع عنها بمعني تأكيدها وترسيخها كأساس لأي تحوّل ديمقراطي وتقدم اجتماعي. والتغيير يستحيل بدون التعاون والتحالف والعمل الجماعي لكن لا يستطيع أي شخص أن يقدم شيئا للمجموعة ويساهم معها في الفعل الاجتماعي فعل التغيير إذا لم يكن هذا الشخص فردا حرّا يشعر بكينونته المستقلة ويحس ويؤمن بأنّ وجوده الفردي سيكون له أثره الإيجابي في عمل المجموعة (سعيد، دت:25). والحرية الشخصية لرضوى توفّر لها مساحة خاصة تعبر فيها عن ذاتها فتستطيع أن تساهم في العمل العام. لذلك نجد رضوى في حالة معارضة شبه دائمة للوضع الراهن. تكتب بياناً و ترد فيه على بيان رئيس الجامعة مطالبة بالاعتذار لإساءته إلى أساتذة الجامعة. ثم أعدت مذكرة للعرض على مجلس الكلية الذي ينعقد في اليوم التالي وإطلاع الزملاء والزميلات على تفاصيل ما حدث من موقعها كشاهدة عيان خاصة بعد تقديمها. وطلبت من عميد كلية الآداب عرضها على مجلس الكلية لكنه اعتذر متعللا بأن هذا إقحام لنفسها على جدول الأعمال هي غير عضو به العام نفسه.

في ظلِّ هذه المواجهة، وهذه الصراعات التي ترويها امرأة قويّة تطالب ضمن مجموعة من الأساتذة الجامعيين بإقالة وزير الداخلية، ومحاكمته «على إثر قراره بإنشاء وحدات للأمن تابعة لوزارة الداخلية في الجامعات» ثم إعلان الرفض لإدارة ماجد الديب لجامعة عين شمس وهاني هلال لوزارة التعليم العالي ومطالبتها باستقالتهما لانحيازهما المكشوف للبلطجية. في ظلِّ هذه «الدراما المتشابكة» يأخذ السرد حركته للأمام فرضوى تكتشف أن الورم الذي في رأسها والذي ظلت تقوم بعمليات جراحية لإزالته قد كبر جدًا ولم تعد قادرة على إخفائه لذلك تجري عددًا من الفحوصات الطبية لتكتشف أن الأمر خطير ويحتاج إلى علاج في الخارج فتقرر السفر على نفقتها الشخصية للعلاج وبدلاً من أن تقوم الجامعة بتحمل تكلفة العلاج على نفقة الدولة يرفض عميد الكلية سفرها بحجة أنّها محالة للتحقيق وأن رئيس الجامعة يريد مقابلتها:

وسط هذه الدراما المتشابكة، الهزلي منها والحزين، كانت دراما أخرى لا على خشبة المسرح أو في المشهد السياسي بل في رأسي. والكلام هنا يا سيدتي القارئة وسيدي

القارئ ليس مجازًا، أعني الرأس المادي المكوّن من مخ وأعصاب..... تنمو بشكل أهوج وتمارس جنونها، يحدث ذلك وأنا أشارك زملائي في توزيع حكم المحكمة الإدارية العليا في الجامعة، وأنا أكتب مسودة بيان9مارس، وأنا أخرج مخذولة من مكتب العميد لأنه قال لا يستطيع أن يعرض المذكّرة على مجلس الكلية. تقدمت إلى عميد الكلية بتاريخ21نوفمبر، بطلب إجازة مرضية من 28نوفمبر إلى9يناير بعد أقل من أسبوع ذهبت إلى مكتبه لأستفهم من سكرتيره عن أمر رسالة تحمل توقيع وكيل الكلية. مفاد الرسالة أنّ وكيل كلية الحقوق يطلب لقائي. طلبت من سكرتير العميد أن يتّصل به. اتّصل وقلت له تريد أن تلتقي بي؟ لو أردت نلتقي اليوم، ما الموضوع أصلًا؟ أذهلتني الجواب. لماذا؟ لأنّك مقدّمة للتحقيق» (عاشور،2013: 23–27).
لذلك تشير رضوى عاشور إلى مدى هامشيتها في جامعة عين شمس التي تنتبه إلى كل شيء سوى الأساتذة الذين يتبعون الحق وتحقيق الحرية والعدالة التي يجب أن يكون في ساحة التعليم دون أي ضغط واضطهاد متجهًا نحو الطلاب والأساتذة. ثمّ تنتقد صراحة ووضوحاً وزير التعليم العالي وهو «هاني هلال» ورئيس الجامعة وهو «ماجد الديب». هما اللذان قد شخصنا السلطة لكي يقمعا محتجين على الظروف التي تموج فيها القسوة.

قرأت بالصدفة المحضة على بوابة «الوفد» خبراً بعنوان هاني هلال يفرج عن رضوى عاشور ثم خبراً فرعيا رضوى عاشور في باريس للعلاج. أما نص الخبر فيقول: وكان الدكتور ماجد الديب رئيس الجامعة وقع الخميس الشهادة الصفراء التي تمنح للعاملين بالدولة إذناً بالسفر للخارج، والتي طلبتها الدكتورة رضوى. وتعاني رضوى عاشور وهي الأديبة والشاعرة الذائعة الصيت من أمراض خطيرة استلزمت علاجها في الخارج عدة مرات العام الماضي . وكان الدكتور هلال قد أحال الدكتورة رضوى عاشور للتحقيق بتهمة إثارة الشغْب في الجامعة (المصدر نفسه: 31).

وتشير رضوى المثقفة إلى الأكاذيب في الخبر. فهي لم تطلب الشهادة الصفراء، لأنها ألغيت بالنسبة إلى أساتذة الجامعات منذ سنوات. ولم تتوجه إلى باريس، بل سافرت على متن الخطوط الجوية الفرنسية إلى واشنطن. ولم يحدث أن سافرت عدة مرات للعلاج لا في العام السابق ولا في الأعوام الأسبق. ولم يسبق لها أن كتبت شعراً أو نشرت قصيدة واحدة. فتنتقد وزير التعليم العالي ورئيس جامعة عين شمس لأنّهما لا يميزان بين الشاعر

والروائي ولا يعرفان نتاجها الأدبي. ويضيء إدوارد سعيد هذه المقاربة بقوله: النفي لا يقتصر معناه على قضاء سنوات يضرب فيها المرء في الشعاب هائمًا على وجهه، بعيدًا عن أسرته وعن الديار التي ألفها، بل يعني إلى حد ما أن يصبح منبوذًا ومحرومًا على الدوام من الإحساس بأنّه في وطنه فهو يعيش في بيئة غريبة. على أساس هذا يمكننا الحصول على موقع رضوى عاشور كمثقّفة منفيّة في وطنها وفي مواجهاتها الثقافيّة والسياسيّة.

لم تستوحش رضوى طريق الحق لقلة سالكيه. ظلّت محافظة على استقلال رأيها المعارض وعلى العمل من أجل وعي القرّاء بما في الواقع من فساد، وتحفيزهم على رفض هذا الواقع والعمل على تغييره. وواصلت الحفاظ على استقلالها. لذلك كان طبيعيا أن ترحل رضوى عاشور دون أن تحصل أي جائزة من جوائز الدولة المصرية الفاسدة التي توزع على التابعين. برغم جدارتها عن حق بأرفع الجوائز. فهي ليست في حاجة إلى رأسمال المؤسسة الرمزي المغشوش لأن رأسمالها الأدبي والفكري كبير وسيظل كبيرًا وفاعلًا حينما تنحسر الأضواء عن كلّ الخبث المرصع بجوائز الدولة (حافظ،2015: 69).

رضوى هي المثقفة التي تنطبق شخصيتها على كل السمات التي يعدّها إدوارد سعيد لشخصية المثقّف. من أبرز هذه السمات هي الالتزام بالأصول والمبادئ الأخلاقية منها الاحتجاج على الذين يشعرون بالامتياز الطبقي أو العرقي والجنسي. إنّ رضوى المرأة العربية التي تلتزم بهذه الأصول التزامًا لا نظير له حيث أنّها تهتمّ بهذه السمة حتى في المواقف التي كانت تهدد حياتها وحرفتها. «يتحتّم على المثقّفين أن يكونوا أولئك الذين يحتجّون على النعرة القوميّة في الوطنية، والتفكير المؤسساتي، والشعور بالامتياز الطبقي أو العرقي أو الجنسي» (سعيد،1996: 15).

«صعدت السلّم وأعلمت مدير مكتب رئيس الجامعة بحضوري. قال: تفضّلي. فتفضّلت. ما إن دخلت حتى قال: إيه الحكاية يا دكتورة؟ إنت دولة داخل الدولة؟! بسرعة أجبت مع التشديد على الكلمة: إطلاقًا. أنت رئيس الجامعة وتملك فيها سلطة أكبر من سلطتي، ولكن ليس بتوقيعي. لن أوقّع على ما أعتقد أنّه خطأ. قطّب وجهه وانتهى اللقاء وغادرت. وفي الكلية قدمت استقالة مسببة من رئاسة القسم لا أدري حتى الآن إن كان العميد رفعها لرئيس أو لم يرفعها. لم أوقّع على طلب النقل. لم يقبل

الطلاب (عاشور،2013: 152).

جرى انتقال رضوى أو نفي رضوى من كلية البنات التي عُينت للتدريس فيها إلى جامعة القاهرة عقاباً لها بسبب مواقفها التي أغضبت الإدارة والجهات الأمنية. ولما استدعاها عميد الكلية ليؤنبها، قالت له بتهذيب: لا أعتقد أنني اقترفت أي خطأ... وتعمد عميد الكلية الانتقام منها واضطهادها لأنها رفضت قبول ابنته ونقلها من كلية البنات إلى قسم اللغة الإنجليزية بكلية الآداب؛ لعدم استيفائها الشروط المطلوبة، كما رفضت تحويل أربعة طلاب من جامعة إقليمية إلى القسم الذي تترأسه، بما يخالف اللائحة التي تشترط حصولهم على تقدير جيد وإلا اضطرت إلى قبول كل الحالات المماثلة وكل الحاصلين على تقدير مقبول. لذلك نلاحظ أنّ رضوى عاشور هي الشخصية التي كانت محتجّة على طلب عميد الكلية الذي يشعر بالامتياز الطبقي دالًّا على نقل بنته من إلى كلية الآداب.

«جاءني الرجل يطلب نقل ابنته من كلية البنات إلى قسمنا بكلية الآداب. لم تكن ابنته مستوفية لشروط القبول في القسم. قلت لأبيها ذلك بكل تهذيب. مال عليّ وهمس: ولكن نائب رئيس الجامعة خالها. وما إن نطق الرجل بالعبارة حتى انتفضت واقفة، صحت: أنا لا أملك في هذا البلد أي سلطة، ولكن لي سنتيمتر في سنتيمتر، هو هذا القسم أسيّره بما أراه عدلًا. أرجوك لا تأت للحديث معي في هذا الشأن مرة أخرى. ربما فوجئ الرجل. ربما أفزعه صياحي...ولكنني في لقاء لنائب رئيس الجامعة مع رؤساء أقسام اللغات بعد أيام، فاجأني النائب بعدوانية غريبة، ما إن بدأت في إبداء رأيي في الموضوع المطروح حتي قاطعني قائلًا: ليس هناك مقدّس إلا القرآن يا دكتورة، هذا التعنت في الرأي غير مقبول (المصدر نفسه:153).

إنّ من أهم سمات شخصية رضوى وقوفها أمام السلطة بجرأة تامة. كانت رضوى ملتزمة بالأصول الأخلاقية. الأمر الذي يؤكد عليها إدوارد سعيد. وهي لم تفعل عملًا بسبب موقفها في الجامعة أو لم تفعل عملًا لأجل خوفها من فقدان موقفها سواء في المجتمع أو الجامعة. ونجد رضوى تقف في وجه السلطة وهنا رئيس الذي يطلب منها انتقال بنته من كلية البنات إلى كلية الآداب. لكن رضوى لم تنجز طلبه. لم تنظر إلى أنّها بنت رئيس الجامعة بل تعاملت على أساس العدل دون أي انتباه بعدوانية رئيس الجامعة. لذلك يفترض بالمثقفين الحقيقيين تعريض أنفسهم لأخطار الحرق أو النبذ أو الصلب.

3-3.رضوى عاشور/ المثقفة الثورية

«درس آخر من دروس الثورة أتمثّل فيه حركة الزمن والأجيال وتبدّل الأدوار. درس بدأ بنوّارة نجم التي درّست لها لعدة سنوات، مرورًا بالأخوين الكفيفين مصطفى سعيد ومحمد عنتر، وليس انتهاء بسلمى سعيد التي درّست لها أيضًا، لأنّ شباب وبنات من دفعات أحداث كانوا يشاركون في الثورة، سألتقي بهم بعد عودتي إلى مصر، في التحرير وخارجه... أتوقّف عند الفقرة وأفكّر في حذفها، أخشي أن يلتبس الأمر على القارئ ويظن أنني ألمّح بشكل أو آخر لتلك الحجة التي ينطق بها بعض من يقاربونني العمر حين يصرّحون أنّهم المرجع والأصل الذي تفرّع عنه هؤلاء الشباب. ليس هذا قوله» (المصدر نفسه:66).

تعترف رضوى في هذه الفقرة بأنّها ربت جيلًا راغبين في المشاركة في الثورة. منهم نوارة نجم، مصطفى سعيد، محمد عنتر وسلمى سعيد. وتشير إلى أنّها التقت بهم في الظروف التي لم تكن صحتها جيدة وبعد أن عادت إلى مصر شاركت في الثورة دون أدنى شك. ولهذا نصل إلى أنّ رضوى أستاذة جامعية لم يكن يقتصر دورها على تعليم المواد الدراسية فحسب بل تشير إلى تعليم الحرية والدفاع عنها بصورة غير مباشرة لطلّابها والتزامها بالمبادئ التي قامت عليها يسبب تربية وتعليم جيلًا واعيين. لذلك نعثر على أنّ رضوى هي تمثّل الشخصية المثقّفة. كما أشار إدوارد سعيد إلى أنّ المثقف هو الذي لا ينفصل عن السياسة والتغيير والثورة.

«قبل عشر سنوات، أو ربّما أكثر قليلًا، ذهبت مع صديقتي منى أنيس إلى الأزهر، للمشاركة في المظاهرة. وعادة ما كانت المظاهرات تبدأ بعد صلاة الجمعة داخل الجامع. ثم يبدأ المصلّون في الخروج إلى الباحة الخارجية ونشر الأعلام واللافتات. وتبدأ مواجهات عنيفة يستخدم فيها الأمن العصيّ والكلاب المدرّبة، ويستخدم المتظاهرون حناجزهم في الهتاف وقدرتهم على القفز والركض لتحاشي هجوم الكلاب وضربات الهراوات. في سنوات لاحقة ستتخذ المواجهات أشكالًا أكثر عنفًا، تستخدم فيها قوّات الأمن الغاز المسيّل للدموع والخرطوش، يضاف إليهما أيام الثورة» (المصدر نفسه:160-161).

رضوى هي المثقّفة الثورية التي كانت تشارك في المظاهرات مشاركة فعالة. حين نقرأ كتابها المعنون بـ«أثقل من رضوى» نجدها دومًا تؤكد على حضورها في الثورة

والمظاهرة. وقامت بوصف كلّ الأدوات القمعية التي يستخدمها البلطجية أو قوات الأمن. وذلك يرجع إلى وعيها السياسي لأنّ رضوى هي المرأة الستينية التي تصاب بمرض صعب لكن لا يكون حاجزا لعدم مشاركتها في الثورة. ولا تعتبر نفسها منفصلة عن الشباب الذين يشاركون في الميدان بل تتبع جميع الحوادث التي تجري في بلدها مصر بمثابة شخصية المثقف الذي يعدّ ثوريّا بسبب مساهمته السياسية في أشدّ الظروف.

«أنزلتنا سيارة أجرة عند مدخل شارع الأزهر من ناحية العتبة. كانت مجموعة من رجال الأمن تغلق مدخل الشارع، تمنع الشباب منم المرور. هل نعود؟ نحاول، لعلّنا ننجح. سيدتان مُهَندَمتان علا الشيب رأسيهما. قد يتخيّل الضباط أنّنا في طريقنا إلى خان الخليلي للتسوّق لشراء فضيّات مثلًا أو المرور بسوق الذهب لانتقاء شبكة لخطبة الولد» (المصدر نفسه:163).

تتحدث رضوى عاشور عن زمن الثورة. وهي بعد عودتها من واشنطن رغم أزمتها الصحية شاركت في الميدان ولم تغادره. وتشير إلى أنّ الضباط لا يفكّرون أنّها شاركت الميدان بسبب المشاركة في المظاهرات. في الحقيقة تهدف رضوى من إتيان هذه الفقرة إلى دعوة الآخرين إلى التمرد وإعلان الرفض والثورة على الواقع الاجتماعي أو السياسي للحصول على الحرية واجتناب قبول الظلم.

«أقف أو أمشي أو أهتف أو أحمل علمًا أو يمدّ لي شابّ يده: هات إيدك يا ماما، يعاونني على صعود رصيف عالٍ من أرصفة الصينية. أو يتقدم شاب آخر يشبك يديه ويقول ضعي قدمك يا ماما. وأستكثر أن أضع قدمي على يديه. ثمّ أفعل، يملؤني الحرج وأنا أتمكّن من الانتقال من حيّز عالٍ إلى حيّز منخفش تحيّرت كيف أنزل منه لأنّ في ساقيّ ما فيهما من بقايا جراح» (المصدر نفسه:169).

تشير رضوى إلى ضعفها حين مشاركتها في المظاهرات، ورغم ضعفها وكهولتها شاركت وساهمت مع الآخرين للتأكيد على أنّها مدافعة عن الثورة التي أنجزت لأجل القيم الإنسانية. وتركّز على أنّها ثورية ولا يؤثر شيء سواء مرضها الصعب أو كهولتها في عدم حضورها. لذلك نحصل على أنّ رضوى عاشور هي الشخصية المثقفة الثورية التي لم تستسلم ولم تلجأ إلى الهروب على الرغم من معاناتها الصحية بل تقوم بمواصلة نضالها وإظهار الحقائق وكشف المستور ونشر الوعي.

النتيجة

في رواية السيرة الذاتية لرضوى عاشور المعنونة بـ«أثقل من رضوى» نلاحظ أنّ رضوى هي الشخصية الرئيسة في عالمها الخيالي. من خلال دراسة «أثقل من رضوى» نحصل على شخصية المرأة الواعية بالنسبة إلى الأوضاع والحوادث المحيطة بها: السياسية، الاجتماعية والثقافية و...إلخ. تتجلّى رضوى في عملها الروائي الشخصية المثقّفة التي تكون مدافعةً عن حقوق الذين كانوا هامشيين ومطرودين منهم النساء الهامشيات. وتكون ثورية بسبب المشاركة في المظاهرات وميدان التحرير لإثبات حضورها في المجال السياسي جنبًا إلى جنب الرجال. ولذلک نجد أنّها تدعو النساء إلى المساهمة السياسية. في هذه الرواية نرى أنّ رضوى تتحدث عن غرض الكتابة عند المرأة ثمّ تركز على شخصيات البطلات في جميع أعمالها الروائية لتشير إلى صلة عميقة بينها وبين الشخصيات النسائية وأخيرا تتطرق إلى شخصية "هند" الفتاة التي شاركت في قضية الثورة في مصر من خلال الإشارة إلى الاعتداء عليها بسبب المساهمة السياسية. ونلاحظ في هذه الرواية أنّ رضوى هي المثقفة التي تعد الهامشية فكريا في وجه السلطة الحاكمة في جامعة عين شمس لاسيّما ماجد الديب رئيس الجامعة وذلک بسبب حضورها النشيط في جميع الحركات الجامعية ضد الفساد الجامعي وتعذيب الطلاب. ومن أهم سمات شخصية المثقف هو قول الحق في وجه السلطة، السمة التي نراها في شخصية رضوى وتسبب مخالفة رئيس الجامعة معها وانتقالها إلى كلية البنات.

المصادر والمراجع

1 – إبراهيم، عبداللّه (2011). **الكتابة والمَنفَى**، الطبعة الأولى، بيروت: دارالعربية.

2 – ابن منظور، (دت). لسان العرب، ج9،دط، المؤسسة المصرية للتأليف والأنباء والنشر.

3 – إسماعيل، نسرين (2015). «رضوى عاشور:القلم القضية!»، **مجلة قوارئ**، العدد الثالث، صص24–25.

4 – تعيلب، أيمن (2014). **أسئلة الثورات العربية "الثورة والوجود"**، الطبعة الأولى، القاهرة: الهيئة العامة لقصور الثقافة.

5 – جرّاد، خلود(2010). **تطوّر البناء الدرامي في روايات رضوى عاشور"1992–2010"**، رسالة للحصول على درجة الماجستير بجامعة الشرق الأوسط.

6 – حافظ، صبري (2015). **أفق الخطاب النقدي دراسات نظرية وقراءات تطبيقية**، الطبعة الأولى، القاهرة: دار الشرقيات للنشر والتوزيع.

7 – حمداوي، جميل (2016). **سوسيولوجيا الثقافى**، الطبعه الأولى، مؤسسة المثقف العربي.

8 – الرويلي، ميجان والبازغي، سعد (2002). **دليل الناقد الأدبي**، الطبعة الثالثة، المغرب: دار البيضاء.

9 – سعيد، إدوارد (2006). **المثقف والسلطة**، ترجمة: محمد عناني، الطبعة الأولى، القاهرة: رؤية للنشر والتوزيع.

10 – سعيد، الشفيع خضر، (دت). **المثقف والتغيير**، منشورات صحيفة الطريق الإلكترونية.

11 – سعيد، إدوارد (1994). **صورالمثقّف**، ترجمة: غسان غصن، بيروت: دار النهار.

12 – عاشور، رضوى(2013). **أثقل من رضوى**، الطبعة الأولى، القاهرة: دار الشروق.

13 – العيسي، منال عبد العزيز (2010). **الذات المروية على لسان الأنا**، أطروحة الدكتوراه، كلية الآداب بجامعة الملك سعود.

14 – طهماسبي، عظيم (1394). مقارنة وتحليل روايتي قطعة من أوروبا لرضوى عاشور وخارطة الحب لأهداف سويف على ضوء النظرية ما بعد الاستعمارية، أطروحة الدكتوراه، جامعة اصفهان، كلية الآداب قسم اللغة العربية وآدابها.

15 – محمود إبراهيم، رزّان (دت). «المؤثر الاستعماري في الكتابة الأدبية إيقاعات متعاكسة تفكيكية، قسم اللغة العربية وآدابها»، **جامعة البترا**، صص1–33.